مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الإنشِقَاقِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد القرآن الزكية

سورة الانشقاق

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الانشقاق

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ
لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ
﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾
فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ
رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

تناولت سورة الانشقاق إظهار وبيان أهوال يوم القيامة، وإثبات البعث، ووعظ العباد بوجوب الاستعداد لهذا اليوم العظيم. وعدم الغرور بهذه الدنيا ومفاتنها، وبحلم الله تعالى عليهم. وبدأ الله تعالى هذه سورة بانشقاق السماء يوم القيامة، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ أي: إذا السماء تفطرت وتشققت وتصدعت بأمر الله تعالى. لأن الانشقاق يعني الانفطار. وقد بدأ الله تعالى هذا البيان العظيم بحرف ﴿ إِذَا ﴾ الذي استدعى التشويق لما بعده مما هو متعلق بالنتيجة. وهو ظرف يستدعي مُتعلقاً آخر، لأنه أيضاً شرط، يُؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده، وهذا الأسلوب بقصد الاهتمام بما أسندت إليه الأفعال التي يغلب أن تكون شروطاً لحرف ﴿ إِذَا ﴾ لأن الابتداء بها أدخل عليها التهويل والتشويق[1] وقد تكرر حرف ﴿ إِذَا ﴾ في هذه السورة مرتين.

ثم يعطف سبحانه وتعالى على تَفَطُّر السماء قوة طواعية وامتثال واستجابة السماء لربها عَزَّ وجل، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ أي: امتثلت وأطاعت أمر ربها بالتشقق ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحق لها أن تُطيع أمر ربها، لأنه الرب العظيم الجليل، القاهر فوق عباده. مما يُعَلِّم الإنسان وجوب الامتثال لربه، فها هي السماء تمتثل لربها طواعية بالتشقق بعد تماسكها التماسك العظيم. مما يُظهر قوة الله تعالى، وعظيم تدبيره.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٢/٤٩٦-٤٩٧)

ثم ينتقل البيان الكريم إلى امتثال الأرض بما أراد تبارك وتعالى، فقال جَلَّ شأنه ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ أي: وإذا الأرض بُسطت، ودُكَّت جبالها. فلا انثناء فيها. ثم قال تعالى عنها ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ أي: أخرجت ما في بطنها من الأموات، وتخلت عنهم طاعت بما أمرها الله تعالى به، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ وامتثلت وأطاعت أمر ربها فيما أمرها به ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ وحق لها أن تُطيع أمر ربها، لأنه الرب العظيم الجليل، القاهر فوق عباده.

وبعد أن أظهر تبارك وتعالى بالبيان أعظم أحوال ما يحدث في الكون من التغيير يوم القيامة، يتجه الخطاب إلى الإنسان لوعظه وتحذيره. فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ يا أيها الإنسان إنك ساعٍ في هذه الحياة الدنيا سعياً متتالياً، ثم مصيرك ومنتهاك إلى ربك جَلَّ جلاله. والكدح هو السعي. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى يا أيها الإنسان إنك عامل إلى ربك عملاً فملاقيه به، خيراً كان عملك ذلك أو شراً. يقول: فليكن عملك مما ينجيك من سخطه، ويُوجب لك رضاه، ولا يكن مما يُسخطُه عليك فتهلك[1] وفي هذا تنبيه ووعظ لجنس الإنسان بعد تحذيره بأهوال يوم القيامة، مما يبين دقة الترتيب في الوعظ. وعناية الله تعالى بالإنسان، إذ يعظه ويحذره، ويبين له الحقائق بكل وجه.

وبدأ البيان الكريم بمناداة هذا الإنسان بياء النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان لهذا الإنسان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة جنس الإنسان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾ يا أيها المخلوق الضعيف، الذي خلقك ربك عَزَّ وجل ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ أي: إنك عامل ومشتغل، وقد جمعت دلالة الكدح ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ عموم السعي وما فيه من المشقة والتعب. ولكن ربط السياق الكريم هذا الكدح بالغاية التي

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣٥/٢٤)

خُلِق الإنسان من أجلها، وهي عباد الله تعالى، فأعاد البيان الكدح لله جَلَّ جلاله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ فربط الكدح وعموم السعي بأنه ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ لربك الذي خلقك، وأنعم عليك بما أنعم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنك عامل لربك عملاً. وقال مقاتل رحمه الله تعالى: إنك ساع إلى ربك سعياً. وقال الزجاج رحمه الله تعالى: الكدح في اللغة: السعي، والدأب في العمل، في باب الدنيا والآخرة[١] فشمل الكدح جميع أنواع سعي الإنسان وأعماله في الدنيا، والتي يجنيها في الآخرة، يوم القيامة. لتظهر بذلك العلاقة بين الآيات التي في صدر السورة عن يوم القيامة وبين هذا الخطاب الواعظ العظيم من رب العالمين للإنسان، بأنك كادح وسائر بجميع أعمالك لربك يوم القيامة، لتأخذ جزاءك الموافق لما قدمت ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ فإنك ستلقى ربك سبحانه وتعالى، وبالتالي مفارق لما أنت عليه في الدنيا ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ فإنك ستلقى ربك عَزَّ وجل يا أيها الإنسان بكدحك الذي كان منك في الدنيا، فليكن كدحك موافق ووفق دين ربك جَلَّ جلاله. فكانت غاية الموعظة هو أن ما تقدمه في الدنيا هو لك يوم القيامة. إن كان خيراً فهو خير لك، وإن كان شراً فهو شر لك. فاجعل كدحك موافق لدين الله سبحانه وتعالى، ولشريعته، وأحكامه.

ثم يخبر الله تعالى بانقسام الناس يوم القيامة في المحشر إلى قسمين: فمنهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره. فقال تعالى عن الذين يأخذون كُتُبَهم بأيمانهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ فأما من أُعطِي كتاب أعماله بيمينه أي: فالذين يأخذون ويستلمون كتبهم بأيمانهم فإنهم: هم أهل السرور والسعادة في ذلك اليوم. وقد ابتدأ البيان بحرف ﴿ فَأَمَّا ﴾ الذي أفاد التعيين والتفصيل، والتوكيد والربط بين من يأخذ كتابه بيمينه وبين ما يكون له من الجزاء والخصوصية التي خصه الله تعالى بها، وبما يدل ويعنيه الأخذ باليمين. فالمجيء بحرف ﴿ فَأَمَّا ﴾ يشد الانتباه لهذه الحال الكريمة المكرمة من الله تعالى. مما يبين عظيم السياق، وقوة دلالته، وغزارة مقاصد حروفه وكلماته. فسبحان من أظهر كريم إعجازه في بلاغة كتابه القرآن العظيم كما أظهره في بديع خلقه وتدبيره جَلَّ جلاله.

وفي تخصيص إتيان الكتاب باليمين دلالة الكرامة، والبشارة بالخير، والنجاة من النار. فهؤلاء سيكون حسابهم يسيراً عند الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ أي: أن حسابه سهلاً، لا عُسر فيه. فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (مَن حُوسب

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٠/٨)

يوم القيامة عُذِّبَ) فقلت: أليس قد قال الله عَزَّ وجل ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم: ليس ذاك الحساب، إنما ذاك العرض. من نوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب)[١] قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: هو أن تُعرض عليه سيئاته، ثم يغفرها الله تعالى له[٢] مما يبين يُسر ذلك اليوم على المؤمن.

ثم يذكر تبارك وتعالى أن من جميل حال هذا المؤمن أنه ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴾ يرجع وينصرف إلى أهله في الجنة مسروراً مغتبطاً بما ناله من المغفرة والفوز بالجنة. فعن قتادة رحمه الله تعالى: أي: إلى أهله الذين أعدهم الله تعالى له في الجنة[٣] من الحور العين، ومن يقومون بخدمته. ومن سبقه من أهله في الدنيا إلى الجنة. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل إلى أهله الذين كانوا له في الدنيا ليخبرهم بخلاصه وسلامته[٤] وهذا من بلاغة البيان في استيعابه واستيفائه للحالتين التي تحدث للمؤمن، فهناك من ليس له أهل من أهل الايمان في الدنيا، فيكون أهله الحور العين، ومن يخدمونه، وهناك من له أهل في الدنيا من أهل الإيمان، فيجتمع له الأمران. مما يبين غزارة بيان القرآن العظيم في سعة استيعابه للمراد، واحتوائه له بكل دقة بيانية.

ثم يتوجه السياق الكريم إلى بيان حال الأشقياء الذين يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم. فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ وهم أهل الشقاء والعذاب. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: بشماله من وراء ظهره، تُثنى يده إلى ورائه، ويُعطى كتابه بها كذلك[٥] وهنا يُدرك بأن مصيره إلى العذاب المقيم، فيكون حاله كما قال الله تعالى عنه ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ أي: ينادي بالويل والهلاك. فيقول: يا هلاكاه، يا ويلاه. فقد أفادت دلالة ﴿ فَسَوْفَ ﴾ المستقبل، بما سيكون قبل أن يكون. وأفادت دلالة ﴿ يَدْعُواْ ﴾ النداء، والعويل بكلمات الثبور، التي تفيد التحسر والندم، مع قوة الخوف والوجل ﴿ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴾ الذي هو الهلاك. لأنه أدرك بأنه للسعير، كما قال الله تعالى ﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ أي: ويصطلي باشتعال النار عليه. وقد أفاد معنى ﴿ وَيَصْلَىٰ ﴾ الاحتراق، بمساس حرها، ودخوله فيها. وأما ﴿ سَعِيرًا ﴾ فهو عذاب

---

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٨٧٦)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢١٠/٨)

(٣) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/ ٢٣٩)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧٩/١٩)

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٢٢/٤)

النار التي تستعر على أهلها، بما يفيد شدة وهَول العذاب، وقوة درجته ونوعه. اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في الدنيا والآخرة، يا رب العالمين.

ثم يخبر الله تعالى بما كان عليه هذا الكافر في الدنيا، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴾ إنه كان في الدنيا بين أهله فرحاً مسروراً بما هو فيه من الكفر، والتمادي في المعصية والفجور، فأصبح اليوم بخلاف المؤمن الذي هو اليوم في أهله مسروراً. بما يبين انقلاب الحال على هذا الفاجر الذي أخذ كتابه من وراء ظهره. ثم يقول الله تعالى عن حال هذا الكافر أيضاً في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ فقد كان يظن أنه لن يرجع إلى ربه للحساب والجزاء. لأن معنى الحور: هو الرجوع. فعن مجاهد رحمه الله تعالى: ألا يرجع إلينا[١] وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أدري: ما يحور. حتى سمعت أعرابية تدعو بنية لها: حوري. أي: ارجعي إليَّ. فالحور في كلام العرب الرجوع[٢] فقد كان حاله في الدنيا هو استبعاد البعث، فلا يؤمن بيوم القيامة، وبالتالي يُنكر الحساب والجزاء.

وقد أظهر الله تعالى قوة تكذيبه بالبعث، وأنه لن يحور بدلالة نون التوكيد ﴿إِنَّهُۥ ﴾ ثم تم التأكيد بحرف ﴿ أَن ﴾ ثم بحرف ﴿ لَّن ﴾ التي زادت من تأكيد نفى الحور ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ أي: اعتقد جازماً بأنه لن يرجع إلى الله تعالى للحساب والجزاء. مما جعله في الدنيا بين أهله مسروراً بما هو فيه من العبث والفجور واللهو. ثم يُبطل الله سبحانه وتعالى هذا الاعتقاد، وينفيه. فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ بلى، ليس الأمر والشأن كما يعتقد هذا الكافر، المنكر للبعث. ليرجعن إلى ربه. فأفاد حرف ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ نفي ظنه واعتقاده بعد الحور والرجوع إلى ربه تبارك وتعالى. وأبان أن ظنه هو ظن فاسد باطل، فإن ربه عَزَّ وجل عالم وبصير به في سائر أحواله. ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ فإن ربه الذي خلقه عالم وبصير بكل ما كان منه ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴾ فإن الله تعالى عليم بعبده من جميع أحواله، سواء ما ظهر منها وما بطن واختفى، سواء ما كان من ظواهر أعمالهم، أو ما كان بالتخفي عن غيرهم به، بل حتى وما كان في نواياهم ومقاصدهم، وما تضمره صدورهم، فلا يخفى عليه شيء منهم سبحانه وتعالى، فإن ربكم بصير بما كان منهم وما يكون.

---

(١) ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/ ٢٤٢)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٨٠)

وقد ورد الخطاب البياني من الله تعالى بالتخصيص ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ﴾ لإفادة التحذير له مما هو فيه من الكفر، مع إظهار قوة ما بعده من بيان، الذي هو ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ والذي أكده بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي أفاد التأكيد لما بعده من بيان. كما أفادت دلالة فعل الماضي ﴿كَانَ﴾ على عمق العلم بك أيها الْمُخَاطَب، فإن ربك أعلم بك، ليشمل الماضي والحاضر، وبما أنت مُقبلٌ عليه، ثم زيادة التأكيد بدلالة عمق التخصيص له بحرف ﴿بِهِۦ﴾ فإنه بك عليم، مما يبين العمق في البيان الذي أفاد التحذير والتهديد، من أجل مصلحة هذا الإنسان، ليعود إلى ربه، فينال خير الدنيا والآخرة.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾

وبعد بيان الله تعالى للمتغيرات التي تحدث يوم القيامة، وما فيها من الأهوال العظيمة، وانقسام الناس إلى فئتين: المؤمن يأخذ كتابه بيمينه، والكافر يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، مع البيان لما كان عليه الكافر من الفجور والسرور بكفره في الدنيا. ثم بعد ذلك يُقْسِمُ اللهُ تعالى بالشفق الذي هو الاحمرار عند الغروب. فقال تعالى ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ فأقسم عَزَّ وجل بالشفق الذي هو حالة الاحمرار عند الغروب، والذي هو آخر نور الشمس في النهار، وأول علامات دخول الليل. وقد بدأ البيان بحرف ﴿فَلَآ﴾ التي دخلت على القسم: للتوكيد وتعظيم المُقسَم به. الذي هو الشفق، ثم أعقبه اللهُ تعالى بالقسم بالليل، إذ قال تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: والليل وما ضم، وما جمع مما أظلمه من الكون وأحاط به سواده. وفي هذا لفت الانتباه لعظيم المساحة التي يغطيها الليل من هذا الكون الفسيح. ليدرك الْمُخَاطَبين عظيم قدرة وتدبير الله تعالى، بما ينفي معه كل اعتقاد باطل، كنفي البعث والحساب والجزاء. وبما يُثبت بهذا التدبير كمال قدرة الله تعالى، التي يُثْبِت بها البعث بعد الموت. وقبلها لفت الانتباه إلى حالة تداخل خروج النهار بدخول الليل في ساعة الشفق البديع في عظمته، وقدرته وتدبيره سبحانه وتعالى. وبما يعني ويفيد أن من يتدبر جريان تدبير الله تعالى للكون في دقته العظيمة، فإنه يجعله يؤمن بالغيب كله، بلا شك ولا ريب.

ثم تلاه وأعقبه القسم بالقمر. فقال تعالى ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴾ والقمر إذا تكامل نوره، وأبدر، فسار بدراً، وذلك حينما يكون في أحسن اكتماله، بامتلائه نوراً، فيكون بدراً مكتملاً بضوئه المنير. قال الفراء رحمه الله تعالى عن معنى ﴿ٱتَّسَقَ ﴾ أن اتساقه: اجتماعه واستواؤه ليلة ثلاث عشرة، وأربع عشرة، إلى ست عشرة[١] ومع أنه قسم إلا أن فيه لفت الانتباه إلى حال القمر عندما يتكامل نوره، وقبل ذلك كيف بدأ وكيف وُلِد هلالاً صغيراً، ثم تدرج في تكامله وقوته، كمراحل نمو الإنسان، حتى إذا بلغ كماله وأشده كما يبلغ الإنسان من قوته وأشده، يتدرج هذا القمر في الضعف، حتى ينتهي، كما يتدرج الإنسان بعد قوته وأشده إلى ضعفه. ثم يبعث الله تعالى هذا القمر من جديد في مطلع كل شهر، فيتكرر نموه. وكذلك يبعث الله عَزَّ وجل الإنسان بعد موته كما أعاد القمر بعد غيابه. وبالتالي فإن الذي خلق هذا القمر، ثم قَوَّاه في تدرج كما يتدرج الإنسان، فيبلغ أشده، ثم يُضعِفُهُ، ثم يُنهيه، ثم يعيد، فإنه عَزَّ وجل لَمُحيي الموتى، وباعثهم كما أعاد بعث القمر، وتجدد الليل، ومثله النهار. فمن لم يصعب عليه ذلك، فإن بعث هذا الإنسان من كمال قدرته عَزَّ وجل، فإنه أهون على الله تعالى من ذلك.

ثم يأتي بعد القسم جواب القسم، فقال الله تعالى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: هذا جواب القسم[٢] والمعنى العام: أي: لتنتقلن في الأمور حالاً بعد حال، ومنزلاً بعد منزل، ودرجة بعد درجة. وهذا المعنى العام لدلالة الآية الكريمة. ولكن من هو المقصود بذلك؟ وهل هذا في الدنيا أو في الآخرة، أو في كليهما؟ فقد أورد العلماء فيها ما يفيد التخصيص بأنه الرسول صلى الله عليه وسلم، وما يفيد عموم انتقال الإنسان في أوضاع وأحوال مختلفة، وبما يكون في الدنيا، وما يكون في الآخرة. وهذا من قوة البيان في بلاغته ورحابته، واستيعابه للمراد بأقصر ألفاظ السياق، وأدق المعاني والدلالات. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أحدهما: أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي معناه قولان: لتركبن سماء بعد سماء. والمعنى الثاني: لتركبن حالاً بعد حال. والقول الثاني: أن الإشارة إلى السماء. والمعنى: أنها تتغير ضروباً من التغيير، فتارة كالمهل، وتارة كالدهن. وقيل هو خطاب لسائر الناس، ومعناه: لتركبن حالاً بعد حال. وهذا قول عامة المفسرين واللغويين. وأما المقصود بالطبق، الذي هو معنى الكلام، ففيه خمسة أقوال: أحدها: أنها الشدائد، والأهوال، ثم الموت، ثم البعث، ثم العرض. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. والثاني: الرخاء بعد الشدة، والشدة بعد الرخاء، والغنى بعد الفقر، والفقر بعد الغنى، والصحة بعد السقم، والسقم بعد الصحة، قاله الحسن. والثالث: أنه كون الإنسان رضيعاً، ثم فطيماً، ثم غلاماً، ثم شاباً، ثم شيخاً. قاله عكرمة. والرابع: أنه تغير حال الإنسان في الآخرة بعد الدنيا، فيرتفع مَن كان وضيعاً، ويتضع من كان مرتفعاً. وهذا مذهب سعيد بن جبير. والخامس: أنه

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢١٠)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/٤٠٨)

رُكُوب سَنن من كان قبلهم من الأولين، قاله أبو عبيدة[١] فقد أبانت هذه الأوجه من المعاني رحابة دلالة الآية الكريمة، والتي وردت في بضع كلمات، لتعطي هذه المساحة والسعة من الدلائل غير المتعارضة في أحوال هذا الإنسان وتقلباته في الدنيا، وأحواله من الدنيا إلى الآخرة، وكذلك أحوال الآخرة التي تبدأ بيوم القيامة وأحداثها، ثم إلى النتيجة حيث المآل، ولتشمل كذلك أحوال وتغيرات الكون: حال السماء في الليل والنهار، وحالها يوم القيامة، وما يعتريها من التغيرات. فاستوفى البيان الكريم أحوال المراد بكل قوة واقتدار. مما يبين الإعجاز الباني في القرآن، كما هو الإعجاز عما أخبر عنه سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى وصف حال هؤلاء الكفرة في الدنيا من صدودهم عن مُوجبات الإيمان، وركونهم إلى الكفر والبغي، بالرغم من كثرة الحجج والبراهين والمواعظ التي تنهال عليهم. فقال تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فما الذي يمنعهم من التصديق والإيمان بعد أن اتضحت لهم الآيات، وقامت عليهم الحجج؟ استفهام إنكار، يُنكر عليهم عدم تجاوبهم مع الأدلة والبراهين. فما لهؤلاء الكفرة صادين، ومعرضين عما يذكرهم بالحق؟ وأعظمها القرآن العظيم. وهو أيضاً سؤال تعجب من حالهم المخالف لما يجب، بالرغم من أن التذكرة ظاهرة لهم من آيات الله تعالى الكونية، وآياته المقروءة والمسموعة من القرآن العظيم، ومواعظ الرسول صلى الله عليه وسلم، وحال الأمم السابقة.

ثم يؤكد تبارك وتعالى إصرارهم وتعمدهم الكفر وعدم الإيمان بالرغم مما يسمعونه من القرآن الذي يتلوه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ إذا قُرِئت عليهم آيات الله ربهم من القرآن لا يمتثلون بالسجود لربهم بالطاعة والامتثال. وهو سؤال استنكار، معطوف على ما قبله ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فمالهم إذا قُرِئت عليهم آيات الله ربهم من القرآن العظيم لا يمتثلون بالسجود لربهم، شكراً وتعظيماً وإكراماً وإجلالاً؟ فإن الامتثال له عَزَّ وجل بالطاعة قد أصبح ظاهراً، بلا شك ولا ريب فيه. فإنه سؤال يُؤكد به سبحانه وتعالى أنهم أدركوا الحقيقة تماماً، ومع ذلك فإنهم ممتنعون بسبب الاستكبار والطغيان. مما يبين أن الاستكبار يجعل المستكبر يترفع ويتعالى على الحق.

ثم يؤكد تبارك وتعالى أن سبب كفرهم بالتكذيب الذي هو مخالفة الحق، بإنه ناتج عن الاستكبار. فقال تعالى ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ بل إن الذين كفروا يُكَذِّبُون بمخالفتهم لما وقر في قلوبهم من إدراك حقيقة الآيات. لأن الكذب هو مخالفة المعرفة، فكفرهم نتيجة تكذيبهم لما وقر في قلوبهم من صدق الآيات والحجج. فَيُبْطِلُ اللهُ تعالى أي سبب يمنعهم من الإيمان، لينحصر في تكذيبهم المبني على العناد. فقد أفادت

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨/٢١٢-٢١٣)

﴿ بَلِ ﴾ الإبطال والإضراب عن كل سبب يمنعهم من التصديق والإيمان، لينحصر في أن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ والكذب هو القول بخلاف الصحيح والصواب، وبخلاف ما يعلمون. فإن الذين كفروا يكذِبُون في أنهم لم يدركوا الحجج والبراهين. فقد كشف الله تعالى عن حقيقتهم مما يبطنون، ويُظهرون خلاف ما أدركوه وعلموه، من أن هذا القرآن حق من عند الله تعالى. فهم عرب أقحاح، يعرفون قوة البيان.

ثم يخبر الله تعالى بأنه يعلم ما تكنه صدورهم، وما حوته من المعرفة بأنه كلام ربهم سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل ﴿أَعۡلَمُ ﴾ بما في قلوبهم من الحقائق. فقد أفادت دلالة ﴿أَعۡلَمُ ﴾ أنه لا غيره سبحانه وتعالى أعلم منه بهم. فقد أعطت العلو في العلم، لأن ﴿أَعۡلَمُ ﴾ من صيغ المبالغة التي تعني: أنه هو سبحانه وتعالى الأعلم ﴿بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي: بما يضمرون ويسرون به في قلوبهم. فإن أوعى وأوعاه، تعني: الحفظ، والفهم، والإدراك. فإن الله تعالى هو الأعلم بجميع ما وعته وأدركته وحفظته قلوبهم، وبالتالي فإنهم يُظهرون خلاف ما اعتقدوا من الحق، ولذلك وصفهم بالكذب فيما سبق ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ ولذلك فإن الجزاء الذي يستحقونه هو العذاب الشديد ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهذا تقريع وتوبيخ لهم باستخدام دلالة البشارة ﴿ فَبَشِّرۡهُم ﴾ لأن الأصل في التبشير أن يكون فيما يسر. فورد هنا على سبيل التندر والتهكم بهم ﴿ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي: ولهم في الآخرة عذاب أليم. وهو عذاب النار الذي يصطلي فيه كل من كفر. وفي هذا تذكير وترهيب لمن لم يتابع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم من كرم الله تعالى عليهم أن استثنى من تراجع منهم. فقال الله سبحانه وتعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ﴾ فبكرمه سبحانه وتعالى استثنى بأداة الاستثناء ﴿إِلَّا ﴾ جميع من اتصفوا بصفتين عظيمتين، فإن هؤلاء لا يكونوا من الموعودين بالعذاب الأليم: فالصفة الأولى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي: صَدَّقُوا بقلوبهم، فآمنوا بجميع موجبات الإيمان وحقائقه، من غير استثناء. فآمنوا بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن، وبيوم القيامة، والبعث، والحساب، والجزاء، والجنة والنار، وبجميع كتبه ورسله، وكل ما هو متعلق بالإيمان. وأما الشرط الثاني: فهو ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى. وهي: أداء الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي

صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، وفي الدنيا وفي الآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فإنه يتعاضد بذلك الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في الطاعة ولامتثال بهما. وسمَّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس، ومع الله تعالى، ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، وفي الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث لمؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته. كما يستحث الكفار على المسابقة إلى الدخول في الإسلام، والامتثال لدين الله تعالى، الذي أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن استوفى هذين الشرطين من الناس فإن ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي: فإن لهم عظيم الثواب والأجر الجزيل الذي لا ينقطع جزاء ومكافأة وثواباً لإيمانهم، والقيام بعمل الصالحات. وقد أفادت دلالة ﴿أَجۡرٌ﴾ الثواب والجزاء، وأنه ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي: غير منقوص، وغير منقطع وغير محسوب، فهو ثواب متعاظم، لا يستطيع أن يدركه أحد من عظمته. وبما يفيد المبالغة التي تعني وصول الأجر إلى أقصى ما يكون عليه الثواب. وفي هذا الجزاء العظيم ما يبين كرم الله تعالى بجزيل العطاء الذي يفوق أعمال العباد، وكذلك رحمته بالعباد، إذ يعظهم، ويحثهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وأنه لا يريد لعباده إلا النعيم المقيم. ولكن البعض من الناس يستهويه حب المعصية والاستكبار، وعدم الانضباط بدين الله تعالى. فكل امرئ بما كسب رهين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الانشقاق. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.